ابن سعود والوهابيّون

بقلم الاب هنري لامنس اليسوعي

يخال المطالع ان الصحافة ، بعد ان تعبت من ذكر فظائع البلشفية وحروب الصين ، شاءت تغيير مواضيعها . فظهرت جرائدنا ، منذ اكثر من شهر ، متحدة متفقة على ان ترعدنا بنكبة جديدة جاءتنا بلادنا عرضة لغارة من غارات البدو الهائلة ، كما لو لم يكن خطر الجراد كافياً وحده . وكان على الوهابيين ان يشنّوا هذه الغارة فيخرجوا من صحاريهم ، ويكتسحوا العراق وشرقي الاردن . وكانت جيوشهم ، على ما ظهر ، اخذت تنقضّ على الكويت من جهة خليج العجم ، واصبحت الوفهم ، من جهة البحر الاحمر ، على بضع كيلومترات من معان والعقبة . وزاد الموقف حرجاً ما اكّدته الصحف من ان ابن سعود نادى «بالجهاد» . فغدا الشجعان من الناس ، حيال تلك الغيوم المكفهرّة ، يستكشفون الافق البعيد ، بينما راح المتشائمون يُكثرون من التعاليق المختلفة على تلك الاخبار المقلقة .

ولكن سرعان ما تبدّدت هذه الغيوم ! فعلمنا انهُ لم يدر قط في خلد ابن سعود ان ينادي بالجهاد . وان كل ذلك الوعيد يستمدّ اصله من غارات شعواء شنّها البدو على حدود شرقي الاردن والعراق . على انهـا لم تكن بالبسيطة ، لان قوّات الانكليز الهوائية اشتغلت في ردّها . فاحدثت ذلك الضجيج المتردّد ، اذ ليس من دخان بلا نار !

اما الآن وقد تلاشى ذاك الدخان ، فهلمّ ندرس هؤلاء الوهابيين ومـا يمثلون . ولنجتهد في تخمين قوى ابن سعود ومقدار ما عنده من العدد والمُدد التي احدثت تلك الضجّة ؛ حتى اذا عـادت الاندية المختلفة الى تحريك تلك النزّاعة ، عرفنا حقّ قيمتها ، وتحقّقنا مبلغها من الإرهاب .

الوهابيون

سنة ١٧٠٣ ، وُلد في عُيَيْنة ، من محالّ نجد ، رجل اسمه محمد بن عبد الوهّاب ، فورث منهُ الوهابيون اسمهم الذي انتشر بين الناس. أمّا هم فيسمّون انفسهم « مسلمين » ، وبلادَهم « بلادَ المسلمين » كما لو لم يكن الإسلام من وجود خارج نجد ؛ بل هم يعتبرون سائر المسلمين غير الوهابيين كفرة ومشركين . وكان ابن عبد الوهّاب من اصحاب المذهب الحنبلي ، وهو اضيق مذاهب السنّة ، فتشبّث من صغره بكتب ابن تيمية ، احد كبار المناضلين من الحنابلة في الشام († ١٣٢٨) . ولم يلبث النجدي الشابّ ان شعر بضرورة اصلاح الإسلام ، وارجاعه الى طهارته الاولية . فبدأ بتحريم الكثير من العادات التي دخلت مع الزمن بين المسلمين ، معتبرًا اياها من البدع . ولم يكتفِ بمنع القهوة ، والتبغ ، والموسيقى ، ولعب القمار ، وملابس الحرير ، وحلي الذهب والفضة ، بل تجاوزها الى تحريم زيارة قبور الانبياء والاولياء ، ورفع الزوايا والقبب لتكريمهم ، ونذر النذور لهم . حتى انه لم يستثنِ من ذلك الصلاة على قبر نبي الإسلام . فكان مشروعه بيانًا شاملًا الكثير من الإصلاحات الدينيّة والاجتماعية . وقد ساعدهُ في تحقيقه الامير محمد بن سعود († ١٧٦٨) من اسلاف سلطان نجد الحالي ، فتمكن بالعنف تارة ، وبالاقناع اخرى ، من اجراء اصلاحاته في قبائل نجد .

على ان الوهابيين لم يلبثوا ان تجاوزوا حدودهم . فانقضّوا على العراق اولًا ، فخرّبوا هياكل الشيعيين في النجف وكربلاء . ثم اتجهوا الى الحجاز في السنتين ١٨٠٣ و ١٨٠٤ ، فاحتلّوا مدن الطائف ، ومكة ، والمدينة ، واحدثوا الفظائع العديدة من سلب ومذابح ، حتى انهم هدموا جميع ما رفع على قبور الاولياء من المعابد والمزارات . واستصفوا كل ما جُمع من الكنوز في قبر محمّد في المدينة . ثم اجبروا علماء مكة ، ومجمل سكانها ، على توقيع وثيقة يقرّون فيها عن انفسهم بأنهم عاشوا في الكفر حتى ذاك اليوم . وبعد ان الزموا الحجّاج

مدة السنين المديدة ، دفع ضريبة خاصة ، قطعوا طريق الحج بتاتاً . فحرج الموقف اذ ذاك ولم يبق مندوحة عن استعمال السلاح . ولما كانت السلطنة العثمانية ، في ذاك الاوان ، اضعف من ان تقاومهم ، عهدت بمحاربتهم الى محمد علي باشا خديوي مصر فشهر عليهم حرباً دامت نحو ربع قرن ، حتى انتصر عليهم بمعاونة اولاده.

ومن ثمَّ ساد السكوت حول الوهابيين ، واخذت الفوضى تفسد جوهم حتى قسمتهم الى امارتين : امارة شمر في الشمال وعاصمتها حائل ؛ وامارة الجنوب وعاصمتها الرياض . فملكت في الشمال أسرة ابن الرشيد ، وفي الجنوب أسرة ابن سعود. وزادت المنافسة بينهما حتى نشبت الحروب المديدة ، فسفكت الدماء الكثيرة في تلك الصحاري ، طوال القرن التاسع عشر.

بلادهم

بلاد الوهابيين نجد التي طالما تغنَّى بها شعراء العرب . وهي صحاري تكثر فيها الواحات . ولا يُعرف عدد سكانها بالتدقيق ، ونرى ان امين الريحاني قد ضاعف هذا العدد لما ذكر مليونين في نجد وملحقاتها . ويعيش نصف السكان تقريباً في المدن والقرى واهمها : الرياض ، وهي العاصمة ، وعدد سكانها ١٨,٠٠٠ ؛ وبُرَيدَه : ١٥,٠٠٠ ؛ وعُنَيزَه : ١٠,٠٠٠ ؛ وشقرا : ٥,٥٠٠ ؛ ومَنفُوحه : ٥,٠٠٠ ؛ وحائل : ٤,٠٠٠ ؛ والمجمعه : ٣,٥٠٠ ؛ وحُرَيملا : ٢,٥٠٠ . واكثرية السكان في الجنوب مؤلفة من سُلالة بني تميم ، وقبائل عنزة ، ومن هؤلاء الاسرة المالكة المعروفة بآل سعود . اما في الشمال فان السكان ، بني شمر ، ينتسبون الى قبائل طيّ المشهورة.

وفي اطراف تلك البلاد من جهات الشمال ، والشرق ، والجنوب ، فلوات واسعة فيها كثير من كثبان الرمل تُعرف بالنفود ، وهي مراعٍ خصبة اذا ما سقط عليها المطر . ووراء هذه النفود تظهر مرتفعات جبل شمر وهي منطقة

حسنة المناخ ، مشهورة في الادب العربي القديم باسم « جبلي طيء » . اما في الجنوب فالمناخ شديد الحرّ .

وكل سكان تلك البلاد من المسلمين الوهابيّين ، لا يهود ولا نصارى بينهم . وهناك ، كما في بلاد الافغان ، يتقيّدون التقيّد الدقيق في المحافظة على احكام الشريعة . فحضور الصلوات اليوميّة واجب لازم ، ولا يزال الاسترقاق جارياً مجراه ، واكثر خدم ابن سعود من العبيد .

اما اقسام البلاد الادارية فاهمها مناطق القصيم ، والجوف في جوار شرقي الاردن ، وهو « دومة الجندل » القديمة ، وحائل او شمّر ، ويحكمها امراء يعيّنهم السلطان . ثم منطقة عارض وعاصمتها الرياض ، ويحكمها مباشرةً ملك الوهابيّين . وكان النقد المتداوَل حتى ايامنا المتأخرة ، الريال القديم المنسوب الى ماري تريز ، ثم المجيدي العثماني ، فالغاهما ابن سعود واوجد نقداً وطنيّاً وهابيّاً . على ان موارد الموازنة قليلة محدودة ، وذلك ان البلاد فقيرة لا تصدر الّا التمر والسمن وتستورد كل شيء . وفي سنة ١٩١٩ أسّس ابن سعود جمعية « الاخوان » وهي مؤلفة من فرَق عسكرية يشتغل رجالها بالحرب تارة وبالزراعة اخرى . ويؤكد البعض ان باستطاعة السلطان تجنيد ٨٠,٠٠٠ (؟) مقاتل . ولكن هل بامكانه ان يسلّح هذا الجيش ؟ وان يتكلّف النفقات الباهظة التي تجرّها الحروب العصرية ؟ ثم ينبغي ألّا ننسى قوّة المخيّلة البدويّة التي تضاعف الارقام ، كما انها تحوّل بضعة ادغال من الوسيج الشائك الى غابة كثيفة .

ابن سعود

اسم سلطان الوهابيّين الحالي عبد العزيز بن عبد الرحمان ، وهو التاسع عشر من امراء آل سعود الوهابيّين . وكان منافسه ابن الرشيد قد ظهر عليه وطرده من امارته ، ففرّ لائذاً بمبارك بن الصبّاح شيخ الكويت . ولكنه على الرغم من حداثة سنّه ، لم يفتأ يستمدّ ويعمل حتى رجع ظافراً فاستعاد النجد الجنوبي ، ودخل الرياض ، عاصمة آبائه ، سنة ١٩٠٢ . ولم تزل العداوة تضطرم في صدري المنافسين حتى زمن الحرب الكبرى حيث انضمّ ابن الرشيد الى الاتراك ،

فانحاز ابن سعود الى الحلفاء . فكافأته انكلترة بان جعلت له ، من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٤ ، جُعالة سنوية قدرها ٦٠,٠٠٠ ليرة انكليزية ، واعترفت له بلقب « السلطان » بعد انتصاره على ابن الرشيد سنة ١٩٢١ ، اذ دخل عاصمته حائل وذبح عائلته باسرها . وكان قبل ذلك بسنتين ، قد اختلف مع الحسين بن علي شريف مكة .

ولا شك في ان شخصية ابن سعود اعظم شخصية سياسية في جزيرة العرب ، في الوقت الحاضر . وهو مهيب الظاهر ، طويل القامة ، يبلغ مترًا و ٨٠ سنتيمترًا . زاره امين الريحاني في اواخر سنة ١٩٢٢ ، فوصفه بما يلي : (١

« السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد ، شديد العصب ، متناسق الاعضاء . وهو اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة ، وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون ؛ وله في التاريخ — تاريخ نجد الحديث — مجد اذا قيس بالاعوام تجاوز السبع والاربعين والمئة . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء ، وفي الشتاء « قنابيز » من الجوخ تحت عباءة بنية . وينتعل ويتطيب ، ويحمل عصاً من الشوحط (٢ طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه ، على تشكيل كلماته ، اذا صعبت الاستعارة ، وتمكينها . وله في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة . وله عينان عسليتان تتيران اماكن العطف واللطف ساعة الرضى ، وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار القضا . وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحديد ، يتقلص فيشتد ، فهو اذ ذاك كالنصل حدًا ومضاء »

ولم يكن في جزيرة العرب مكان اطمعَ من طراز الشريف حسين وابن سعود ، يطمح كل منهما الى السيادة على الجزيرة بكاملها . فسارت الحالة

---

١) امين الريحاني : ملوك العرب ، الجزء الثاني ، ص : ٦٩

٢) الشوحط : شجرٌ تتخذ منه القسي ، او نوع من النبع شبيه بالشربان ينبت في نجد الغربية .

بينهما حتى صيف سنة ١٩٢٤ ، اذ زحف ابن سعود على الحجاز فاحتل الطائف ومكة . ولم تمض سنة على ذلك حتى كان سيد جدة فوضع حداً فاصلاً للدولة الشريفية في الحجاز . وكان قد وعد بانه يرفع مصير الحجاز السياسي ، الى مؤتمر اسلامي تحكيمي . ولكنه لم ينتظر قرار هذا المؤتمر بل اتخذ لنفسه لقب « ملك الحجاز » . ثم تناسى وعده ايضاً بأن لا يُلحق الحجاز بنجد ، فجمع بين البلدين وسمّى نفسه رسمياً « ملك نجد والحجاز وملحقاتها » . وكان ان احتلاله بلاد الاحساء ، والعسير الشمالي ، جعله اقوى امير في بلاد العرب فتاخمت اراضيه بلاد العراق ، وفلسطين ، وسورية ، وانبسطت من البحر الاحمر الى خليج فارس .

بيد ان هذا التوسع السريع اثار قلق امراء العرب . فقامت اليمن تحتج على وضع العسير تحت حماية الوهابيين ، وهي تدّعي ان تلك البلاد لها ، وتمدّ العدد لاسترجاعها . وقد تنشب حربٌ يتحقق فيها الوهابيون قوة اقرانهم . وتوترت علائق ابن سعود مع مصر منذ حادثة « المحمل » في حجّ سنة ١٩٢٦ ، وهي لم تعترف بعد بالقاب الرسمية . وان تسرّعه في تملك الحجاز ، وخفره لوعده سوّد صفحته امام العالم الاسلامي اجمالاً ، ومسلمي الهند خاصة الذين كانوا حتى ذلك العهد ، من اخلص مريديه .

وكذلك أثّر اثراً سيئاً عددُ الوفيات الكبير ، الذي حصل اثناء حجّ سنة ١٩٢٧ ، وهو ناتج عن عدم الاهتمام بتحقيق الوسائل الصحية . فضلاً عن ان تعصب الوهابيين يُفيظ البيئات المتنورة في الاسلام ، ويُرهق سكان مكة والمدينة . حتى انه اكتُشف ضمن حاشية الملك مؤامرات على حياته .

اما موقف حيال انكلترة فنعرفه من المعاهدة التي وقّعها مع هذه الدولة في الصيف الماضي . وهي تلغي كل ما سبقها من المعاهدات . وبها تعترف انكلترة باستقلال الدولة الوهابية استقلالاً تاماً ، وبالقاب ملكها الرسمية . ولقاء ذلك ، يتعهد ابن سعود الّا يهاجم العراق ، ولا الكويت ، ولا بلاد عُمان ، ولا شرقي الاردن ، ولا يُغير على من حالف انكلترة من العرب .

ويقبل بان يؤخر الى وقت آخر المطالبة بحقوقه في معان والعقبة . وهو يطالب بهاتين المنطقتين لزعمه انهما من الحجاز.

* * *

لا مشاحة في ان ابن سعود رجل طماع ، ولكن لا مشاحة ايضاً في انه رجل ذكي عاقل . وان جميع من عرفوه ، عن قرب او عن بعد ، متفقون على ذلك. فهو يعرف قوته دون شك ، ولكنه يعرف ايضاً حدود هذه القوة . وهو لا يخشى الحرب ، ولكنه يعرف انها غالية الثمن ، وان خزانته فارغة او عاجزة عن القيام بنفقاتها ؛ وانه عند اول فشل حربي ، يرفع جميع اعدائه رؤوسهم ويستعيدون قواهم . وهو يعرف ايضاً ان حظوته لدى العالم الاسلامي تختلف عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات ، فالقوم لا يعتقدون اليوم بتجرده واخلاصه . على ان بغضه لأسرة الشريف حسين بن علي لم يكن ليخمد بسقوط كبيرها عن عرش مكة ، فابن سعود لا يزال ينتهز الفرص للانتقام من بني هاشم بالهجوم على ولدي الشريف : فيصل ملك العراق ، وعبد الله امير شرقي الاردن . ولكنه لا يجهل انه يلاقي في طريقه انكلترة وهو مربوط معها بمعاهدة سياسية لم ينشف حبرها بعد . . .

بقي علينا ، والحالة هذه ، ان نتساءل هل نشّط ابن سعود غارات الوهابي فيصل الدويش ، ام لا ؟ الجواب في غاية الصعوبة ، اذ يجب ألّا ننسى انه من الصعب ضبط البدو الذين لا يتراجعون امام تجربة النزو الغرارة.

وعلى كل فنحن نعتقد ، استناداً الى الاسباب المذكورة اعلاه ، ان ابن سعود ، وهو الرجل السياسي الحكيم ، يتردد كثيراً قبل ان يُغامر في مشاكل كالتي تنسبها الصحف اليه عجالاً.